

صعرا البغدادي

الدكتور جواد احمد علوش
استاذ مشارك في قسم اللغة العربية

سفير الثقافة الشرقية في الأندلس

اسمه ونسبه ومولده :

هو أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي الموصلية
الربيعي ، نسبة الى ربيعة بن نزار ، « وربيعة شعب واسع فيه قبائل
عظام » (١) .

ولد صاعد في الموصل (٢) . ولم يرو الرواة شيئا عن مولده
ونشأته ، كما لم يعرف احد سنة ميلاده لكن الباحث المدقق يستطيع ان
يستنتجها استنتاجا أو يقربه الى الواقع تقريبا . . . فقد قال عنه
المؤرخون انه « مات عن سن عالية » (٣) ، والسن العالية لا تقل عن
سبعين سنة بأية حال من الاحوال . . . ولما كانت وفاته سنة (١٧٤ هـ) (٤) ،
فمن المحتمل ان مولده كان في أواخر النصف الاول من القرن الرابع
الهجري .

شب صاعد محبا للادب وعلوم اللغة فتلقى ما تيسر له على أيدي
الشيوخ المشهورين في الموصل (٥) ولم يكتف بذلك . ودفعه طموحه
الى السفر طلبا للعلم ، فيمم شطر بغداد ، وهي يومئذ عاصمة العباسيين
ومنازل الحضارة ، وقبله المتعلمين والمتأديبين ، فنهل ما حلاله من علوم
وآداب ، على أيدي أساطين العلم والادب - وهم في بغداد كثر
بومذاك - ومن الذين ذكر أنه تلمذ لهم : أبو سعيد الحسن بن عبدالمطلب
السيرافي المتوفى عام (٣٦٨ هـ) وأبو علي الحسن بن أحمد القارسي
المتوفى عام (٣٧٧ هـ) وأبو سليمان احمد بن محمد الخطابي المتوفى
عام (٣٨٨ هـ) وأبو بكر احمد بن جعفر القطيعي المتوفى في عام ٣٦٨ هـ (٦)
فقرأ عليهم علوم العربية ، وسمع منهم الكثير من شعر العرب . فوعى

ما قرأ ، واستوعب ما سمع ، والحق أنه وعى كثيرا واستوعب كثيرا .
وقد كان ذكيا فطنا ، وقد أتاه الله ذاكرة قوية ، ومملكة أدبية مواتية ،
وفطرة طبيعية سليمة ، فأفاد من كل ذلك فائدة عظيمة ، وأصبح عالما
باللغة والادب والاختبار^(٧) كيف لا وقد كان يرحل في سبيل طلب العلم
من مكان الى آخر ومن بلدة الى أخرى ، وكان ذا شغف بالشعر عظيم ،
بدأ يقوله وينشره بين الناس في فجر شبابه ، ليذيع صيته وينتشر اسمه ،
ويعلوا ذكره ، ولكن جو بغداد كان مشبعاً بكل نفع عبق ، فاني لعطر
جديد ان يفوح بين تلك العطور . . ؟ وافقها كان مليئا بالكواكب ،
المتلألئة والنجوم اللامعة ، فاني لكوكب جديد ان يظهر ويلفت اليه
الانظار . . . ؟ ولم يلفت هذا في عضد (صاعد) الطموح ، ولم يصف
من روحه الوثاب ، فظل يبحث عن بلد يقصده ، وكنف ينتجعه . .
واتجه نحو الاندلس اذ عرف ان اللغة هناك مطلوبة ، والاداب محبوبة
يشجع ملوكها ورعيتها العلماء الادباء وذوي المواهب ويقدرونهم حق
قدرهم^(٨) ، فشد اليها الرحال .

ودخل صاعد الاندلسي في حدود «سنة ثمانين وثلاثمائة» (٣٨٠هـ)
والخليفة فيها يومذاك المؤيد هشام بن الحكم بن عبد الرحمن . الا ان
الامر كان بيد ابي عامر المنصور محمد بن ابي عامر^(٩) المتوفى (٣٩٣هـ)
واتصل أول دخول البلاد بالوزير عبد الله بن مسلمة ، وقد ظل وفيما له
حين نكب ، اذ كتب له عدة رسائل يستعطف بها الوزير ابا جعفر ابن
الدب كي يشفع له عند الخليفة سليمان منها :

« لما جمع الله طوائف الفضل عليك ، واذ لق بك الالسن ، وأرهف
فيك الخواطر ، ورفرف عليك طير الآمال ونفضت اليك علائق الرجال ،
لم أجد لأبن مسلمة حين عضه الثقاف ، وضاق به الخناق ، وانقطع به
الرجاء ، وكبابه الدهر ، فلجأ غيرك ، فعطفك على واله نبهه النحن من
سنة السعد ، وأيقظته الآفات من رقدة الغفلة ، ورشقتة سهام الزمان
بصنوف الامتهان ، حتى لقب المنية أمنية ، وسمى الموت
فوتا . . . »^(١٠) .

ثم اتصل بالمنصور محمد بن ابي عامر فأكرمه وزاد في اكرامه ،
وقدمه وزاد في الاحسان اليه والاقبال عليه حتى انه وصل الى مرتبة
الوزارة^(١١) وكان المنصور يريد ان يقضي به آثار ابي علي القالي
البغدادي^(١٢) الذي جاء الاندلس في ايام الخليفة عبد الرحمن الناصر
فلقي منه اعظم تقدير ونال اوسع شهرة فعهد اليه بتعليم ابنه الحكم
والف له كتاب الامالي^(١٣) .

ولم يصل صاعد الى ما رسم له الا بعد مصاعب كثيرة ، فقد
دبرت له المؤمرات ، وحامت حوله الشبهات وبثت الاشاعات ، وحيكت
الوشايات ... اذ كثر اقرانه ومنافسوه ، وتعدد حساده ومناؤوه
واغضبهم ان يحظى بهذه المنزلة الرفيعة عند المنصور وان يقفز الى
اعلى درجات المجد في بدء وصوله هذه البلاد واتهموه بالكذب ،
وقدحوا في عمله وعقله ودينه^(١٤) وحرصوا المنصور على ان يعقد له
مجالس الامتحان ليعرف قدرته ويدرك قيمته ويلمس موهبته ، وقد
كان لهم ما ارادوا ٦٦ فامتحنوه وناقشوه . وكان الامتحان الاول
بشابة امتحان القبول ... فقد جرى في الايام الاولى لاتصاله بالمنصور
اذ كان يزعم فيها انه عرف علوم العرب كلها ، ورسخت قدمه فيها ...
وفي مجلس من مجالس المنصور ضم كثيرا من اعيان الاندلس وعلمائها
وادبائها منهم : ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي والحسين بن الوليد
ابن العريف ، وعاصم بن الحسن العاصمي^(١٥) تحدثوا عن صاعد وعلمه
وادبه ، وادعائه وحقيقته . فأحب المنصور ان يمتحنوه اذ قال « احب
ان يمتحن » وارسل اليه من يدعوه فلم يكذ يوصل ويدخل المجلس
حتى رآه حافلا بكل جليل من العلماء ، غاصا بانداذه من الادباء ...
وكأنه احس بما يدبرون ، وشعر بما يكيدون ، فظهر عليه التأثر ، وبدأ
على وجهه الخجل ... ولمح المنصور ذلك فرفع محله وادناه منه ، واقبل
عليه ، وبدأ يسأله عن ائمة علماء بغداد ، ومنهم ابو سعيد السيرافي
فزعم انه لقيه ، وقرأ عليه (كتاب سيويه)^(١٦) فانبرى له (العاصمي
يسأله في احدى مسائل هذا الكتاب فلم يستطع صاعده ان يجيب ،
« واعتذر أن النحو ليس جل بضاعته ولا رأس صناعته » . فبادره

(الزبيدي) يسأله « فما تحسن أيها الشيخ ؟ » فقال صاعد « حفظ
الغريب » فسأله الزبيدي : « فما وزن (أولق) ؟ » (١٧) .

ضحك صاعد طويلا من هذا السؤال .. وقال متعاليا : « أمثلي
يسأل عن هذا ؟ انما يسأل عنه صبيان المكتب » . ووقف الزبيدي في
وجه تعاليه ورده قائلا : سألتك ولا نشك انك تجهله » . فتأثر صاعد
وتغير لونه وجرى الدم في عروقه ، ورأى أن في ذلك تحديا له ، فقال :
« وزنه (أفعل) وقد أخفق صاعد في هذا ولم يصب ، فوزنه (فوعل) .
فالتفت الزبيدي الى من في المجلس وقال : صاحبكم ممخرق (١٨) .

ولكن هذا الفشل لم يفت في عضد صاعد ، ولم يفلت منه زمام
أمره ، فقال للزبيدي : أخال الشيخ صناعته الابنية » ولما أجابه
بالايجاب أردف صاعد : « أما بضاعتي فحفظ الاشعار ، ورواية
الاخبار ، وفك المعنى ، وعلم الموسيقى (١٩) . وهنا تصدى له (ابن
العريف) ثالث الفرسان الثلاثة الذين أداروا رحى الامتحان وقد تقدم
حينه والوقت الذي ذكر فيه اختصاصه ، فأراد أن يضع لصاعد ثلاثة
الأثافي ولكنها انكفأت على رأسه فقد ظهر صاعد على ابن العريف
وسما عليه ، وخلفه وراءه بأشواط ، اذ أبدى مهارة فائقة وتمييز
بسرعة خاطر عظيمة ، فلم تجر في المجلس كلمة الا أنشد عليها شعرا
شاهدا ، أو أتى بحكاية تجانسها أو طرفة أو نادرة (٢٠) فأعجب به
المنصور أيما اعجاب ، ودهش منه جميع الحاضرين ، وادركو قيمته
وعرفوا قدرته . أما ابن العريف وقد فشل ، فكاد يتوارى حياء وخجلا ،
وتألم من صاعد أشد الالم وأضمر له كل شر ، وكان يحاول ان يكذب
كل ما يدعى صاعد لنفسه من علم او ادب كلفه ذلك مشقة عظيمة
حسدا لصاعد (٢١) .

وعرض المنصور على صاعد أن يؤلف له كتابا على غرار أمالي
ابي علي القالي فثار كبرياء صاعد وقال للمنصور بأستطاعتي أن أملي
على كتاب دولتك كتابا أجل منه وأعظم لا أورد فيه خبرا مما أورده
أبو علي (٢٢) . فأذن له المنصور بذلك .. فبدأ في كتابة كتاب اسمه

(الفصوص) في شهر ربيع الاول سنة خمس وثمانين وثلاثمائة (٣٨٥هـ) ودأب على العمل في جامع مدينة الزاهرة فجمع كل نادر غريب طريف عجيب من الاخبار والاشعار ، طوال خمسة أشهر ، حتى أتمه في شهر رمضان (٢٣) . فأمره المنصور ان يلقي هذا الكتاب بالمسجد الجامع في مدينة الزهراء ، واحتشد له الناس وفيهم كثير من الوجوه واعلام الادب وأقطاب اللغة (٢٤) وأعجبوا به اعجابا شديدا ، وأثابه المنصور عليه بخمسة آلاف دينار قدمها له دفعة واحدة (٢٥) .

وقد أثار ذلك حفيظة ابن العريف ، وأشعل نار حسده ، وبدأ يفكر في الكيد لصاعد فأثار العلماء والادباء على كتاب (الفصوص) ينقدونه ويكذبون كل ما جاء فيه ، فلم يقف أمام نقدهم خبر ثبت فيه ، ونم تمر كلمة صحيحة لديهم (٢٦) ، وقد أعانهم على ذلك انه اشترط على نفسه ألا يأتي الا بالغريب ، وما يروى سوى غير المشهور (٢٧) ، فاستطاعوا ان يشبتوا للمنصور صحة ادعائهم ، وجردوا الكتاب من كل فصل فأقنعوا المنصور أن يأمر باغراق الكتاب في النهر . وأغضب هذا كثير من الادباء ، وهذا (ابن بسام) يقول : « ولم يكن عند (ابن أبي عامر) تحرير ولا بصر بالنقد مشهور ، والا فليس يخلو الفصوص من غريبة مسموعة ، ولا من رائعة بديعة (٢٨) ، وفرح أعداء صاعد وحساده بذلك وهللوا له ، وقال ابن العريف :

قد غاص في النهر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص (٢٩)
فضحك المنصور والحاضرون ، فلم يرع ذلك صاعدا ، وقال مرتجلا على البديهة مجيبا ابن العريف :

عاد الى معدنه انما توجده في قعر البحار الفصوص (٣٠)

ثم يكتف بن العريف بالنصر الذي توج مساعيه ، واختتم به تأمره على صاعد ، وظل يكذب ويعمل للايقاع به ، ويحاول ان يكذب كمن ما يدعيه صاعد لنفسه من فضل أو علم أو أدب بلا كلل ، وكم كانت الظروف تخدمه ، كما تقف لصاعد بالمرصاد ، فقد اهدت الي

المنصور وردة جميلة في غير أوانها ولم يتم تفتح ورقها بعد ، فأحب
المنصور أن توصف .. فقال فيها صاعد مرتجلا :

أتتك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها^(٢١)

فسر ذلك المنصور أي سرور وأعجب بسرعة بديهة صاعد وحسن
تشبيهه فاندلعت نار الحسد في قلب (ابن العريف) فقال : « ان هذين
البيتين لغيره وقد انشدنيهما بعض البغداديين بمصر وهما عندي على
ظهر كتاب بخطه »^(٢٢) فطلب منه المنصور ان يريه هذا الكتاب ..
فخرج وركب دابته على عجل وسارت به مسرعة حتى أتى مجلس (ابن
بدر) وقد كان ابن بدر أحسن أهل زمانه بديهة ، وقص عليه ما حدث
وطلب منه ان ينظم له ابياتا يضمها الى بيتي صاعد ، فارتجل (ابن
بدر) :

غدوت الى قصر عباسية وقد جدل النوم حراسها
فألقيتها وهي في خدرها وقد صرع السكر أناسها
فقلت : أسار على هجعة ؟ فقلت : بلى ، فرمت كأسها
ومدت يديها الى وردة يحاكي لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها
وقالت : خف الله لا تفضح من في ابنة عمك عباسها
فوليت عنها على غفلة وما خنت ناسي ولا ناسها^(٢٣)

فسر بها (ابن العريف) سرورا عظيما ، وكتبها على ظهر كتاب
بخط مصري بمداد أشقر وقفل ورجعا الى مجلس المنصور ، وهو يحس
بنشوة الانتصار على غريمه ، ولذة الظفر بما يشفي غليله .. ودخل
على المنصور وألقى بالكتاب بين يديه ، فلما قرأ المنصور الأبيات اشتد
غيظه على صاعد وغضب غضبا شديدا ، وظل يتوعده ويقول انه أعد له
أمرا خطيرا حاسما سوف يتتليه به غدا ..

لقد أعد المنصور امتحانا عسيرا لصاعد ، امتحانا يختبر به شاعريته

ويتشرف موهبته ويظهر حقيقته • وقرر ان يجري الامتحان في مجلسه
ويشرف عليه بنفسه اذ قال لجلسائه : « غدا أمتحنه ، فان فضحه
الامتحان أخرجته من البلاد ولم يبق في موضع لي فيه سلطان^(٢٤) »
وفي الصباح ، أقبل صاعد يحث الخطى متجها الى مجلس السلطان ،
حيث يعقد له الامتحان ، والله وحده يعلم ما كان يدور بخلدته من
أفكار ، وما يجيش في صدره من اتصالات ، وما يضطرب في نفسه من
هموم • فهو يدعي أن ليس في هذه الجزيرة من أوتي علمه ، ويرى ان
ليس بين العرب من بملك موهبته • • فكيف ينعد له امتحان لسبر
غوره ؟ ومن ذا الذي يعقد له هذا الامتحان ؟ • • واذا فشل واضطر
الى مغادرة الاندلس فأين يذهب ، والى أين المصير ؟ • • ووصل الحلبة
فوجدتها غاصة بالناس ، جاؤا ليشهدوا هذا الامتحان ، بعضهم ليشتت
به ، اذا فشل ، وبعضهم ليفرح له اذا فاز ، وبعضهم ليعرف حقيقة
أمره ، فيعطيه ما يستحق • • ولما مثل بين يدي المنصور قال له : « ان
هذا يوم اما أن تسعد فيه معنا ، واما ان تشقى بالضد » وتغادر أرضنا
فقد زعم قوم ان كل ما تأتي به دعوى ، وقد وقتت من ذلك على
حقيقة^(٢٥) لا تكذب ، بل تؤكدها الادلة والبراهين • وأود ان امتحنتك
اليوم بنفسى لأضع حدا لهذا الامر • • ولا أشك في أن موضوع
الامتحان جديد لم يمر على أحد قبلي وقبلك • فصفه بما تجود به
عليك قريحتك •

لقد كان موضوع الامتحان طريفا غريبا ، مستحدثا عجيبا • • فقد
أعد المنصور طبقا كبيرا صنعت فيه سفائف من مختلف انواع الزهور
والنواوير والريحان ، وكان على تلك السفائف ، وقد صنعت من
النياسمين على هيئة الجواري • • وتحت السفائف بركة ماء حصباؤها
من اللؤلؤ ، وفيها ثعبان يسبح وسلاحف •

ولم يكده هذا الطبق يحضر أمام المنصور ويراه صاعد حتى
تجمعت كل قواه الذهنية والفكرية وتواثبت ملكاته الخيالية والشعرية ،
وشحذ الموقف الرهيب همته وحرك موهبته ، فقال على البديهة :

أبا عامر هل غير جدواك واكف ؟ وهل غير من عاداك في الأرض خائف ؟
يسوق اليك الدهر كل عجيبة وأعجب ما يلقاه عندك واصف
وشائع نور صاغها هامر الحيا على حافتيها عبقر ورفاف
ولما تناهى الحسن فيها تقابلت عليها بأنواع الملاهي الوصائف
كمثل الظباء المستكينة كلما تظللها بالياسمين السفائف
وأعجب منها انهن نواظر الى بركة ضمت اليها الطرائف
حصاها اللآلي سابح في عبابها من الرفش مسوم الشعابن زاحف
تري ما تراه العين في جنباتها من الوحش حتى بينهن السلاحف (٣٦)

فضج الجميع اعجابا وتقديرا ، وتعالى أصواتهم مهئين مباركين .
وفرح الصديق وتهلل وجهه بشرا وحبورا . . . وهز الاعجاب المنصور
فكتب الايات بخطه ، ومع كل هذا فلم ينته الامتحان عند هذا الحد
فكان شدة اعجاب المنصور بالايات دفعته الى الاستزاده ، أو كأن
عاملا آخر دفعه للتأكد من قريحة صاعد وموهبته ، فبحث عن شيء
جديد ليصفه صاعد ، وكانت بالقرب من السفائف سفينة صغير فيها
جريبه قد صنعت من النوار ، وكانت الجارية تجذف بمجدافين من ذهب
ولم يك صاعد قد رآها ، اذ حجبتها عنه السفائف ، فأشار اليه المنصور
أن يصفها ، فقال على الفور :

وأعجب منها عادة في سفينة مكللة تصبو اليها المهائف
اذا راعها موج من الماء تتقي بسكانها ما أنذرته العواصف
متى كانت الحسناء ربان مركب تصرف في يميني يديها المجادف
ولم تر عيني في البلاد حديقة تنقلها في الراحتين الوصائف
ولا غرو ان شاقق معاليك روضة زهتها أزاهير الربا والزخارف
فأنت امرؤ لو رمت نقل (متالم) و(رضوى) ذرتها من سطاك نواسف
اذا قلت قولاً أو بدعت بديهة فكلني لها اني لمجدك واصف

وما كاد صاعد يكمل أبياته هذه حتى تعالبت عبارات الاعجاب ،
وترددت كلمات التقدير وكان يوما من أعظم أيامه ، فاز فيه بما كان
يتمنى ، وما تآقت اليه نفسه مذ دخل الاندلس ، وفوق كل ما لقي من

حفاوة وتكريم ، حصل من المنصور على جزاء عظيم ، اذ اعطاء « الف دينار » وامر له بمائة ثوب منها الغلائل ومنها الطيقن ، ومنها العمائم . واجرى عليه راتبا قدره « ثلاثون دينار » في الشهر والحق في ديوان الندماء مع شعراء الدولة الكبار^(٣٧) وهو الديوان الذي انشأه المنصور تقديرا للشعراء واعترافا بحقهم على الدولة ، ولم يعد باستطاعة هؤلاء الحاسدين الكارهين ، ان يزحزحوا صاعد عن مركزه ، وان يدنوه عن مقامه ، وان ينزلوه من درجته التي تربع عليها ، فلمع نجمه ، وطار صيته ، وسما ذكره ، وكانت حشود الناس تتجمع حوله في المساجد الجامعة وهو يلقي دروسه في اللغة والادب ، واخبار العرب واشعارهم ويفيض على الحاضرين بالنوادر والطرف . وكان الاقدار هادنت صاعدا وانقادت له هي الاخرى . . . قد وقعت له حادثة عجيبة ، عاد فألها على المنصور وعلى العرب والمسلمين بنفع عميم . . . فقد اهدى صاعدا وانقادت له هي الاخرى . . . فقد وقعت له حادثة عجيبة ، عاد فالها على المنصور وعلى العرب والمسلمين بنفع عميم . . . فقد اهدى (صاعد) آيلا الى المنصور وسمى الأيل (غرسية) باسم ملك الروم (غرسية بن شحنة) صاحب (نبرة)^(٣٨) ، وكتب له هذه الايات :

يا حرز كل مخوف وامان كل مشرد ومعز كل مذل
ياسلك كل فضيلة ونظام كل جزيلة وشراء كل معيل
ما ان رات عيني وعلمك شاهد جدوى علائك في معيم مخول
عبد جذبت بضعه ورفعت من مقداره اهدى اليك بايل
سميته (غرسية) وبعثته في جبله ليصح فيه تفاولي
فلئن قبلت ، فتلك انفس منة اهدى بها ذو منحة وتطول
منحتك غادية السرور بعزة وحلت أوجا بالسحاب المخضل^(٣٩)

وقد كان ذلك في ربيع الاول « سنة خمس وثمانين وثلاثمائة »
وقد قضى الله أن أسر المسلمون (غرسية) ملك الروم في اليوم الذي
بعث فيه (صاعد) بالأيل^(٤٠) وقد كان (غرسية) هذا أمنع من
النجوم ، لكنه خرج يتصيد يومذاك ، فمكن الله المسلمين منه . فابتهج
المنصور بذلك وسر سرورا عظيما ، وفسر المنصور هذا القال الحسن

الذي تنبأ به (صاعد) بقوله : « لم يتفق لصاعد هذا القول الغريب الا
— لحسن نيته وصفاء باطنه » (٤١) .

توفى المنصور سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة٤٣) فحزن صاعد
عليه حزنا عظيما ، وتالم اشد الالم واحس بانه فقد سنده وركنه
الشديد الذي كان يشد ازره ويعينه حين تهب بوجهه الاغصير الهوج ،
والعاهل الذي الذي اكرمه وقربه منه وفضله على غيره ، واحب
شعره وادبه ، ورفع منزلته واعلا ذكره . فكان لهذا الاكرام الذي لقيه
صاعد من المنصور اثره العظيم في نفس صاعد فهو وان كان يقبله بحبه
واعظامه ، وتقديره والاخلاص له . لكن هذا لم يظهر تماما الا بعد وفاة
المنصور اذ قسم الا يحضر مجلس احد ممن يلي الامر بعد صاحبه
الراحل ، وفاء له وحزنا عليه وتمييزا لمجلسه عن مجالس غيره حتى
مجالس ابنائه وخلفائه (٤٤) ، فانقطع صاعد عن المجالس العامة ،
والندوات الادبية ، وعاش منعزلا او كالمنعزل بارا يمينه ولم يرض
ابناء المنصور ذلك العمل الذي قام به صاعد ولم يعجبهم ابتعاده عن
مجالسهم وغيابه عن ندواتهم ، فقد حرمهم من ظرفه وعلمه ، وشعره
وادبه . وطلبوا منه الحضور والجوا في الطلب . وعرضوا عليه انواع
الهدايا وازددوا في العطاء ولكنه ابى الا ان يسير على النهج الذي
وضعه لنفسه ، فكان يعتذر لهم بالهم في ساقه يمنعه من السير ، وقد
قال اكثر المؤرخين والكتاب انه ادعى هذا الالم ادعاء كي يستطيع ان
يمنتع عن حضور المجالس لذلك كان يمشى متكئا على عصا (٤٥) ليثبت
ادعائه . وقد اشار الى هذا الالم في القصيدة التي هنا بها المظفر بعيد
القطر سنة ست وتسعين وثلاثمائة أي بعد ثلاث سنوات من وفاة
المنصور ، ومطلعها :

اليك حدوت ناجية الركاب محلة امانى كالهضاب

ويقول مشيرا الى الوجع الذي ادعاه (٤٦) :

الى الله الشكية من شكاة رمت ساقى فجعل بها مصابي

وأقصتني عن الملك المرجي وكتت أروم (٤٧) حالي باقتراب

ولما لم يشفع هذا المرض لاعتزاله ولم ينفع هذا الادعاء لابتعاده عن المجالس العامة ، وألح عليه القوم في العودة الى ما عودهم عليه في أيام المنصور ، وجد أن بقاءه في الاندلس غير ممكن لما كان يعاني من صراع نسي اذ ظل اصحاب الامر يطلبون منه الظهور ومشاركتهم في محافلهم واجتماعاتهم ونفسه تأبى وفاء بذلك لمن أكرمها ورفع منزلتها ، حتى قل ماله ورقت حاله ، وزاد الطين بلة وقوع الفتنة بعد وفاة عبد الملك بن المنصور اذ حاول أخوه عبدالرحمن ان ينتزع الخلافة من هشام المؤيد ، فطلب من هشام ان يوليه عهده فاجابه وكتب أبو جعفر بن برد عهدا وثيقا في ذلك ، فثارت ثائرة الامويين وانصارهم من البربر وغيرهم فخلعوا المؤيد وقتلوا عبد الملك (٤٨) وبدأت الاضطرابات والمنازعات والحروب (٤٩) واختل الامن وتغيرت الاحوال ، وقيل ان

صاعدا بعد ذلك ضويق وطولب واغرم مائة مثقال (٥٠) فاضطر الى الاستغاثة بعلي بن وداعة ، هو أحد الفرسان الابطال المعروفين في الدولة يومذاك وكتب اليه رسالة منها : « اني على وهن ، وما أخذ الدهر مني ، ونحته من قدحي لأربأ بالفضل ان يخط الأ في مصانه ، ويحل رحله في غير معانة ، فلم أحوم على أحد طير رجائي ، ولا رمقت بأملي الا من نوه الله باسمه ، وناسب بين أحواله ، وشابه بين خلاله ، فسبحان من جعل سناتك عدل لسانك ، وبيانك كفاء طعمك ... (٥١) » ولم ينل من علي بن وداعة شيئا ، واتجه الى الخليفة هشام بن الحكم بعد ان اعيد الى الخلافة (٥٢) يطلب منه ما يصلح حاله فلم يجبه الى ما يريد ... « واختل حال صاعد ... وعجز عن ستر ولده وهله (٥٣) ، ولم يزد هشام عن السماح له بالخروج من الاندلس والانطلاق عنها خوفا من لسانه ، وحاول أن يصلح حاله بعون سليمان المستعين فلم يفلح ، فاضطر الى الذهاب الى صقلية ، وجاز ب (شلطيث) سنة ثلاثة والاربعمئة (٤٠٣ هـ) فاتصل بصاحبها فأعطاه من المال ما أغناه (٥٤) وأصلح حاله وأعاد اليه الطمأنينة والهدوء . ويظهر انه كان

قد جاء الى صقلية منفردا ، فعاد الى الأندلس ليصحب أهله وولده
 فتم له ذلك وعاش فيها في هدوء وسلام حتى وافته منيته .
 لقد اتفق الباحثون جميعا على ان صاعدا توفي في صقلية ، ولا
 خلاف في ذلك ولكنهم يختلفون في عام وفاته ، فهناك ثلاث روايات
 مختلفة اختلافا كبيرا ، فقد ذهب أكثر الكتاب الى انه توفي سنة سبع
 عشرة وأربعمائة الهجرية ومن هؤلاء ابن خلكان في الوفيات (٢٢٩/١)
 والحموي في معجم الادباء (٢٨٥/١١) وابن بشكوال في كتاب الصلة
 (٢٣٢/١) وابن العماد في شذرات الذهب (٣٠٦/٣) والسيوطي في
 بغية الوعاة (٧/٢) والخوانساري في روضات الجنات (٣٣٣) وغير
 هؤلاء كثيرون وقد بت هؤلاء في الامر وحسموا القول وذكروا السنة
 بلا تردد ، ولا اعتراض على هذا فليس فيه أي خلل . وهناك من ذكر
 انه توفي سنة عشر وأربعمائة ومن هؤلاء ابن بسم في الذخيرة (٣٩) .
 أما القفطي فيذكر في (الانباء) رأيين مختلفين في روايتين متباينتين ،
 فيقول في الرواية الاولى انه مات بها (صقلية) قريبا من سنة عشر
 وأربعمائة (٨٩/٢) ويعود بعد قليل فيقول انه توفي في سنة تسع
 عشرة واربعمائة راويا عن ابن حزم (٩٠/٢) ولا يسع الباحث المدقق
 الا ان يرجح رواية واحدة من هذه الروايات ، ويخيل الى ان ارجحها
 هي سنة سبع عشرة واربعمائة الهجرية ، أي سنة ست وعشرين وألف
 الميلادية (١٠٢٦ م) اذ ان أكثر الرواة يذهبون الى هذا ويرجعونها
 على سواها ولم يشك أحد منهم فيها أو يتردد في روايتها ، وقد ذكروها
 جميعا بصراحة ووضوح وتأکید . وقد أخذ هذه الرواية عنهم بعض
 الباحثين المحدثين منهم الزركلي في الاعلام (٥٥) ويلنثيا في تاريخ الفكر
 الأندلسي (٥٦) . وما يضعف رواية سنة عشر واربعمائة ان روايتها
 قليلون ، وانهم لم يحددها تماما فقد قال القفطي انه مات قريبا من
 سنة عشر واربعمائة ولم يقل سنة عشر واربعمائة ، وان أبا محمد بن
 حزم تلميذه وصديقه لم يروها فليس من المعقول ان يموت صاعدا سنة
 عشر واربعمائة ولا يعلم به ابن حزم حتى لو لم يكن معه في الأندلس ،
 اذ جاء عن ابن حزم قوله : ان صاعدا توفي سنة تسع عشرة واربعمائة

والفرق كبير بين الروايتين • ومع هذا فاننا نرجح سنة سبع عشرة
واربعمائة لان رواية سنة تسع عشرة واربعمائة جاءت عن طريق القفطي
الذي انفرد بها وحده نقلا عن ابن حزم وقد يكون هذا الفرق البسيط
بين تسع عشرة وسبع عشرة من أثر الرواية والنقل سهوا أو تحريفا
والاصل هو سبع عشرة واربعمائة • وقد يقع التحريف بين سبع وتسع
وهكذا طويت صفحة من الادب والعلم والجدال والجلاد ، والكفاح
والعمل ، والابتكار والتقليد ، والمحاكاة والتجديد ، رحمه الله وأحسن
اليه •

لم يحاول الذين ترجموا لصاعد أن يصفوا جسمه أو يذكروا شيئا
يتعلق بصفاته المادية أو برسموا صورة تقريبية له • ولذا لا يمكن
لدارس اليوم أن يتكهن بهذا أو أن لا يحاوله مهما أوتي من البراعة في
قراءة ما بين السطور وكشف أسرار الشعر والحوادث التي لها صلة
بصاعد • أما صفاته الاخرى فقد تضاربت فيها آراء المؤرخين والكتاب
الذين ترجموا له •

لقد قالوا عنه انه طيب المعاشرة ممتع^(٥٧) • • فكه المجالسة • •
طيب بلطائف الشكر^(٥٨) كما قالوا عنه انه كذاب مختلق مدع عديم
الثبت^(٥٩) وقدحوا في علمه وعقله ودينه^(٦٠) • وهكذا نرى ان القدماء
جمعوا في صفاته بين الاضداد وبالغوا في الصاق التهم الى جانب ما
يستحق المديح ، ولا عجب فالرواة في الغالب لا يسمعون وصفا أو
صفة لمن يريدون أن يكتبوا عنه شيئا إلا أسرعوا في تدوينه ، لا تفوهم
عبارة ولا يغفلون عن خبر ، حتى اذا ضارب بعضها بعضا ، لا يناقشون
ولا يمحصون ، لا يوازنون ولا يناسبون ، وبذلك يجتمع لديهم مثل
هذا الخليط العجيب في بعض الاحيان مما يتعب الدارس الممحص
فيذهب في التأويل كل مذهب • وقد كان صاعدا محبوبا لدى كثير من
الناس محترما مقدرا ، فوصفوه بخير الصفات ونعتوه بأحسن النعوت
— وأبغضه البعض الآخر وكرهه ، وناصبه العداة الشديد ونافسه
ومقته وحسده • • فالصق به شر التهم ووصفه بشر الصفات ومن هؤلاء

المعادين الكاشحين (ابن العريف) فقد كان يحسده وينافسه وجرى
الى مناقضته^(٦١) وليس هذا بعجيب فالحسد - كما يقول ابن بسام -
« موروث وقديم لا حديث ، وليس في الحيوان أخبث في ذاته من
الانسان^(٦٢) » ومثل هذا الطبع مما يقود الانسان الى أن يناقض غيره
ويحوك له الدسائس ويدبر المؤامرات كما فعل ابن العريف وأعوانه
لصاعد ونشروا حوله الاشاعات للحط من قيمته واخماد صلته والقضاء
على شهرته . . فكم من مرة نصبوا له الشراك للايقاع به في مجلس ابن
ابي عامر ، ومن ذلك انهم اقعوا المنصور فجلد كراريس بيضا ،
وازيلت جدتها ، فظهرت كأنها قديمة ، وجلدت على شكل كتاب كتبوا
عليه (كتاب النكت) تأليف (أبي العوث الصنعائي) فلما دخل صاعد
مجلس المنصور ، أروه اياه وسأله المنصور هل قرأت هذا الكتاب ؟
ترامى صاعد عليه ، وجعل يقبله ، مدعيا أنه قرأه . وذكر اسم بلده
ادعى انه قرأه فيه واسم شيخ يقول انه قرأه عليه فدهش المنصور
وقال له « ان كنت قرأته كما تزعم ، افعلام يحتوي ؟ فقال : وايبك لقد
بعد عهدي به ولا أحفظ منه شيئا ، ولكنه يحتوي على لغة منشورة .
لايشوبها شعر ولا خبير ، فقال له المنصور : ابعده الله مثلك فما رأيت
أكذب منك^(٦٣) . وصاعد معذور في مثل هذه الحالات ، فهو محاط
بحساد يكيدون له ، وهو يعرف انهم يريدون ان يوقعوا بينه وبين
المنصور ، ويحاولون ان يقللوا من قيمته وعلمه وموهبته ، لذلك فهو
ينتحل ما ينتحل ، ويختلق ما يختلق . دفاعا عن النفس ومحافظة على
المنزلة وردا لكيد الاعداء . . . وقد كان كثير من علماء اللغة في المشرق
في مختلف العصور يعملون مثل هذا حين يسألون عن كلمة أو بيت أو
غير ذلك من مسائل اللغة والنحو والادب . بل قد وصلت هذه الحال
الى رجال الحديث في بعض الاحيان . . . ولسنا نريد أن نبرر هذه
التهفوات التي وقع فيها صاعد ولكننا نريد ان نبين انه لو لم يحط
بمناوئين لما ظهر منه مثل هذا الامر ، ولما بدا في مثل هذه المواقف التي
جعلت الكتاب والمؤرخين يظلمونه ويقسون عليه ، بنعته بتلك النعوت
التي تخرجه عن الخلق الكريم . وهو رجل يتحلى بالصفات الحميدة

والاخلاق الفاضلة ، دلنا على ذلك أدلة لا تقبل الشك . لقد كان صاعد
طموحا شديدا الطموح ، ولو لم يكن طموحا لما أحس بالحاجة الى
مغادرة بلده الى بغداد طلبا للاستزادة في العلم بدافع الطموح وحب
العلم ، وان كان بلده يزخر بعلماء اللغة والنحو والادب والعلوم
الدينية يومذاك لكنه كان يتعطش للمنهل العذب والعين الثائرة المتدفقة
والافق الواسع الرحب . ولو لم يكن طموحا لما هاجر من العراق الى
الاندلس يخترق الاقطار ويعبر الانهار ، ويتحمل المشاق ، ويقاس ما
يقاسي من متاعب لينال هناك ما تصبو اليه نفسه ، وما يرغب فيه من
منزلة رفيعة ودرجة عالية وقد دفعه طموحه هذا الى تحمل كثير من
المصاعب مما كان يلقاه من المجالس الادبية التي كان يريد ان يتفوق
فيها على سواه . ولعل من ذلك تلك المناقشات التي كانت تدور بينه
وبين مناوئيه فيحاول ان يظهر عليهم بشتى الطرق ومختلف السبل وما
كان يلقاه من هؤلاء الخصوم من عنت حين يحاولون الوقوف بوجهه
أو اخفاء علمه أو حجب أدبه فيعمل بجد وصبر واناة لكشف غاياتهم
والتخلص من محاولاتهم كي يستمر في طريقه الى الامام متقدما نحو
الهدف المطلوب في الطريق المرسوم . وقد كان وفيا نادر الوفاء فقد
كان لا ينسى اصدقاءه واخوانه في كل مكان يذكرهم دائما ويتغنى
بأفضالهم في كل حين ، ويذكر مزاياهم ، كلما وجد الى ذلك سبيلا ،
ومن وفائه انه ظل يحفظ عهد أساتذته في العراق كالسیرافي والفرسي
والخطابي ، يجلب علمهم ويحترم آراءهم ، لذلك وجدناه يمدح بلادهم ،
ريتغنى بهم ويفخر بمواهبهم فقد قال ابن بسام : « وكان صاعد كثيرا
ما يمدح بلاد المشرق بمجلس المنصور ، ويباهي بأخبارها » (٦٤) . وهل
هناك دليل على وفائه أوضح من انقطاعه عن الحياة العامة وعدم
حضوره مجالس الانس والنوادي الادبية بعد موت صاحبه المنصور
حدادا عليه ووفاء له ؟ انه والله لنعم الوفاء ، فقد ادعى انه اصيب
بمرض في ساقه منعه من ارتياد تلك المجالس حين طالبه أبناء المنصور
بحضورها . . . وقد اضطر الى المشي وهو يتوكأ على عصا أعدها ليؤكد
دعواه . . . ومعظم المؤرخين يقولون انه ادعى هذا الالم ادعاء للوفاء

بالعهد الذي اتخذته على نفسه (٦٥) وقد كان صبورا طيب الصبر ، فقد
بدا صبره واضحا في المواقف الحرجة التي كان يضعه فيها خصومه
ومناوئوه ، ولولا صبره لثار وغضب وفقد صوابه وما استطاع ان
يبلغ مناه أو يصل الى هدفه ، لكنه كان يصبر ويثبت ويهدىء نفسه
ويتحمل ما يكيله عليه الخصوم من اتهامات ويلصقونه به من صفات ،
ويفندها - مستعينا بالصبر - بذكائه وحلمه ورباطة جأشه واحدا
واحدا . . . فحين امتحنه ثالوث المناوئين الزبيدي والعاصمي وابن
العريف . . . ظل يتلقى ضرباتهم صابرا عليها حتى استطاع ان ينتصر على
غريمه - ابن العريف - حين قاد المعركة الى الحقل الذي يمكنه ان
ينتصر فيه الى « حفظ الأشعار ، ورواية الاخبار وفق المعمي » ولو
انه جزع لاول وهلة من كلام من سبقه لما اتصر . . . فقد قال له
الزبيدي قولا يؤثر في النفس منه : « قد سألتك ولانثك انك تجهله »
ثم وضحه بصفة ثانية اذ نال المحاضرين « ممخرق » ومع هذا كله ظل
صاعدا متذرعاً بالصبر حتى بلغ ما يريد .

وهو حسن النية نقي السريرة صافي الضمير ، وقد شهد له بذلك
المنصور الذي عرفه حق المعرفة لما كان معروفا به من الحزم والذكاء
والفطنة والدهاء ولما كان بينهما من وثيق الاتصال . وقوى الروابط .
فقد قال عنه الملك غرسيه الاسباني : « لم يتفق لصاعد هذا الفال
الغريب الا لحسن نيته وسريرته وصفاء باطنه » (٦٦) . وقد كان ظريفا
حلو الحديث طيب المعاشرة مؤنسا كثير الامتاع فكه المجالسة (٦٧) ،
وهذه هي الصفات التي حببته الى المنصور وكثير من جلسائه ، وجعلته
لا يمل حديثه فلزم مجلس المنصور وصحبه في أكثر سفراته وجولاته
وحروبه ورحلاته . ولا عجب فهو موسيقى بارع ومغن عذب الصوت
حلو الغناء . وقد كان كريما متلافا لا يبقى على شيء من المال (٦٨) ،
فبالرغم مما ناله من الاموال من المنصور والثراء والحظوة لديه ، الا
ايه صرفها في حينها فافتقر ورقت حاله بعده ، واضطر الى الهجرة من
الاندلس الى صقلية عند وقوع الفتنة . وقد اتهمه بعضهم بأنه « غلب
عليه حب الشراب والبطالة ، وايشار السخف والفكاهة (٦٩) » . ويخيل

الي ، ان هذا تجن ممن رماه به وهو قول أعدائه ومناوئيه لان مالدينا من حوادث ووصف لسيرته لا يدل على هذا ، ولا كان ما وصف به قد بلغ حد الافراط به عن الطريق لما قر به المنصور وجعله ملازما له ووصل الى مرتبة الوزير عنده (٧٠) .

لقد كان صاعد ذكيا حاد الذكاء ، كما كان قوي الذاكرة سريع الحفظ فساعده ذاكته على الحفظ الكثير فقرا كثيرا وحفظ ما قرأ واستوعب ما حفظ واطلع على مختلف فروع الثقافة العربية والعلوم المعروفة في عصره فأفاد منها كثيرا ، فقد درس الفقه والحديث وال اخبار والادب واللغة والموسيقى وما يدل على سعة اطلاعه وغزارة علمه وعمق ثقافته انه كان يناظر خصومه ويفحهم في كثير من الاحيان بالرغم من اختلافهم الاسئلة واغرابهم في اعدادها ، فقد انتصر على ابن العريف في المناظرة الاولى فكان « الأيجري في المجلس كلمة الا أنشد عليها شعرا شاهدا وأتى بحكاية تجانسها » (٧١) . وقد ناظر صاعد فتى من فتيان المنصور اسمه (فاتن) فتغلب عليه مما أدهش المنصور ، فقد كان فاتن هذا « لا نظير له في علم كلام العرب وكل ما يتعلق بالادب .. حسن الحظ واسع المعرفة ، فصيح اللسان حاضر الجواب .. ممن تباهى الملوك بخدمته .. توفي سنة اثنتين واربعمائة » (٧٢) ولكن صاعدا استطاع أن يسكته ويتغلب عليه ، كما استطاع أن يتفوق على غيره من اللغويين والادباء في مجلس المنصور .

ومن أطرف ما وقع لصاعد في هذا الباب انه سأل الادباء واللغويين في مجلس المنصور يوما عما يريد امرؤ القيس في قوله :

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل (٧٣)

فرد عليه جلساء المنصور : « هذا واضح ، وانما وصف فرسا أشهب عقرت عليه الوحش فتطير دمها الى جيده فجاء هكذا . فقال صاعد : سبحان الله أنسيتم قوله قبل هذا (٧٤) البيت يصف الفرس :

كميت يزل اللبد عن حال متنه لما زلت الصفواء بالمتنزل

فبهت القوم وعجبوا كيف يفسرون البيت الاول بما ورد من معنى
وكانهم لم يقرأوا الآخر فاضطروا الى سؤال صاعد تفسيره فقال :
« انما عين أحد وجهين : أما انه نضح صدره بالعرق ، وعرق الخيل
أبيض فجاء مع الدم كالشيب ، وأما أشياء كانت العرب تضعها وذلك
انها كانت تسم الخيل باللبن الحار في صدر الخيل فيتمتع ذلك الشعر
وينبت كأنه أبيض » (٧٥) .

هذه الثقافة الواسعة في علوم العربية جعلتهم يصفونه بقولهم
« كان متقدما في علم اللغة ومعرفة العويص وكان أحضر الناس شاهدا ،
وأرواهم لكلمة غريبة » (٧٦) وبالرغم من هذا كله فقد قالوا انه برز في
بعض العلوم مقصر في البعض الآخر مبدع في اللغة ضعيف في النحو
فقد قال الققطي : « وكان صاعد غير صاعد في النحو مقصرا ، وباللغة
قيما » (٧٧) ، ولعل الققطي اعتمد في حكمه هذا على ما روى عن
العاصمي اذ قال « لما سألتاه مرارا عن مسائل من النحو غامضة بحضرة
المنصور فقصر فيها قال ابن أبي عامر : فأنه من طبقتي في النحو أنا
اناظره » (٧٨) ، وربما كان ذلك صحيحا فطبعه أميل الى الادب منه الى
النحو ، فلا يأخذ منه الا بالتقدير الذي يحتاج اليه وهو يعتبره وسيلة
لا غاية فلا يتبحر فيه ، فكأنهم عرفوا نقطة الضعف وهاجموه فيها
وكرروا الهجوم وهو لا يمكن ان يتنازل على الرغم من أنه اعترف مرة
بأن النحو ليس بضاعته » (٧٩) كي يناظروه في بضاعته الا انه كان يعين
هؤلاء الباحثين عن سقطاته على نفسه ويمهد لهم السبل لا لتقاده ويفتح
الابواب والشعرات فيلجئون منها وينالونه بالتجريح ، اذ انه كان يستغل
سرعة خاطره ومواتاة بديهته فلا يتردد في أن يجيب عن أي سؤال
يعرفه أو لا يعرفه ، وقد يتدع الشعر ويتكرر الحادثة ويخلق الخبر
ان أراد الجواب . . فكان السائلون يتفقون قبل أن يسألوه ويبيتون
أمرا ، ويخلقون ما يسألونه عنه . ويبطنون شرا . . فاذا ما أجاب
حاسبوه وناقشوه وكشفوا كذبه واختلاقه وأظهروا ضعفه وقصوره
وبالغوا في ذلك ونشروه بين الناس وقد اختلفوا مرة كلمة (الخبشار)
ولا وجود لهذه الكلمة في المعجم العربي وطلبوا من المنصور ان يسأله

عن معناها ، فلم يعتذر عن جهله اياها ، ولم يتردد في تفسيرها فقال :
هي حشيشة يعقد بها اللبن بيادية الاعراب وفي ذلك يقول شاعرهم (٨٠).

نقد عفدت محبتها بقلبي - كما عقد الحليب الخبشار

ودخل يوما على المنصور وأمامه طبق فيه تمر فسأله المنصور :
ما (التمركل) في كلام العرب فأجاب صاعد : « يقال : تمركل الرجل
يتمركل تمركلا اذا التف في كسائه » . فرد عليه المنصور بانه اشتق
له هذه الكلمة من التمر والاكل وعجب كيف أنه وجد لها هذا المعنى
وهكذا نرى ان مزاحه هذا سبب له هذا الاعراض من العلماء
وابتكر هذا الجواب : فكان ساعد يصر على انها من كلام العرب .
ويقول : قد وافق ذلك أمرا كان (٨١) .

هذا فان بعض العلماء يرون أنه من رواية الحديث فقد ذكره ابن حجر
فقالوا : (ولولا كثرة مزحه ما كان الا عالما) (٨٢) . وعلى الرغم من

العسقلاني بين رواية الحديث ، وهو معروف بتشده وجده وتزمته
في هذه الامور (٨٣) . ومن مظاهر تعدد ميادين ثقافته انه خاض ميدان
الفن أيضا فبرع في الموسيقى وأبدع في الغناء ، واتقن العزف على
العود ، وقد عرف الناس أنه ضرب بسهم وافر في هذه الفنون الا انه
أخفى ذلك عن المنصور حينما من الدهر . غير ان المنصور لم يفتأ ان
اكتشفه فيه ، اذ روى الرواة الحادثة التالية ، « دخل (صاعد) على
المنصور فلما وصل اليه ، وجد عودا بين يديه ، فقال له المنصور : « قد
تواتر الخبر وتحدث عنك البشر ، انك فرد من علم الموسيقى ، وقد
أردت غير مرة الانبساط معك سرا في ذلك » . فشق الامر على صاعد
ولم يجد من محيد عن أخذ العود فتناوله وجس أوتاره وسوى تسوية
أطربت (ابن أبي عامر) ثم اندفع ينشده بيتي مجنون بني عامر :

أبي القلب الا حبها عامرية لها كنية « عمرو » وليس لها عمرو
تكاد يدي تندي اذا ما لمستها وينبت في أطرافها الورق الخضر (٨٤)

وبالرغم من توهم المنصور أنه عرض بخبر في هذين البيتين ، فانه

قدر فنه واعجب ببراعته ، وظل على حبه اياه واعجابه به ، ولا بد ان يكون لرجل هذا شأنه وهذه ثقافته أثر كبير في ثقافة البلد الذي يعيش فيه ، أجل لقد أثار حركة علمية واسعة النطاق في اللغة والنحو والاعبار وغير ذلك ، وخلق حركة نقدية كبيرة ، فأثر في الذوق الادبي بما يروى لكبار شعراء المشرق وما يتباهى به من شعرهم ، وأوجد نهضة أدبية شعرية عظيمة لمنافسة الشعراء في مختلف المجالس في قول الشعر بديهية ، وارتجالا ، وعن روية واستعداد ليس هذا فحسب بل انه ادخل طريقة جديدة في تدريس الشعر ، اذ كان يقرأ النص الشعري لتلاميذه ، فيكتبونه أولا ، ويضبطونه بالشكل ، ثم يشرح لهم معاني الالفاظ القريبة لفظا لفظا ، فاذا انتهى من ذلك شرح لهم المعنى العام^(٨٥) وبذلك يمكن ان يحلل النص وينقد التلاميذ ويتذوقونه فيسهل حفظه . وهذه هي الطريقة التي نستعملها اليوم في دراسة النصوص الادبية في مختلف مراحل دراستنا .

وقد كان لصاعد تلاميذ درسهم وتلقوا عليه مختلف العلوم وتأثروا به فخذوا حذوه في كثير من الامور فقد ظل يدرس العلم في الاندلس حتى خرج منها الى صقلية ومنهم : ابن سيده اللغوي المرسي صاحب المحكم والمخصص المتوفي سنة (٤٥٨ هـ) وابن احيان ، المؤرخ الاديب الذي قال انه قرأ عليه كتاب الفصوص في داره وأتمه في سنة (٣٩٩ هـ)^(٨٦) المتوفى سنة (٤٦٩ هـ) والقطيني ابو تمام غالب بن عبد الله المتوفى سنة (٤٦٥ هـ) وابن المغلس عبد العزيز بن احمد القيسي المتوفى سنة (٤٢٧ هـ) وقد كان للاميين نصيب في التلمذة على صاعد أيضا فقد ذكر (الزهيري) من تلاميذه « وكان شاعرا اديبا أميا لا يقرأ »^(٨٧) وكان ذا موهبة عظيمة يعين استاذ في بعض الاحيان أو يسد مسده ويعوض عنه ، من ذلك ان الشاعر عبدالله بن ماكان ركب نرجسة في وردة فكان منظرهما غريبا ، فطلب من أبي العلاء ، وابن شهيد أن يصفها ، فأطرقا يفكران ويتأملان ويستمطران الوحي .

ودخل عليهما الزهيري فلم يكذب يستقر في مكانه حتى اخبر بالامر
فارتجل وهو يضحك :

ما للاديين قد أعيتهما مليحة من ملح الجنة
رجسة في وردة ركبت كمقلة تطرف في وجنه (٨٨)

لقد خلف صاعد تراثا أدبيا رائعا ، في مختلف الفنون الادبية ،
بعضه ضاع وبعضه ما يزال مخطوطا وبعضه وصل الينا عن طريق الكتب
والموضوعات الادبية ومن أهم اثاره : كتاب الفصوص

لقد ألف هذا الكتاب الادبي الثمين على غرار (الامالي) لأبي
علي القالي ونحا فيه منحا (٨٩) بإشارة من المنصور محمد بن أبي عامر
الذي أراد ان يقفى به آثار القالي ، بدأ كتابه في شهر ربيع الاول سنة
خمس وثمانين وأكماله في شهر رمضان من تلك السنة ، وبدأ في قراءته
وتدريسه في المسجد الجامع بالزهراء بأمر من المنصور وحضوره ،
فاحتشد له جميع غفير من أهل الادب ووجوه الناس (٩٠) فأعجب به
المنصور وآتابه عليه بخمسة آلاف دينار (٩١) كما أثار حفيظة مناوئيه
وحسد منافسيه فراحوا يبينون للمنصور ان الكتاب مليء بالاكاذيب
وفندوه « فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ولا خبر ثبت لديهم » (٩٢)
فغضب عليه المنصور وأمر ان يقذف الكتاب في النهر . ولعل صاعدا
هو الذي أعانهم على احباك مؤامراتهم لانه انما كان قد اشترط على
نفسه من التمحل في اتيان الغريب والنادر غير المسموح المؤلف (٩١) .
ولا يستطيع الباحث ان يجزم ان الكتاب قد لقي هذا المصير بالرغم من
ان ابن العريف قال :

القي في النهر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يفوص (٩٤)

فقد تكون هذه الرواية مختلفة من أساسها والبيت موضوع
أصلا ، وقد يكون الرواة ممن يتبكون القصة ويحاولون أن يجكوا
أطرافها فنظموا ردا على هذا البيت نسبوه الى صاعد هو :

عاد الى معبدته إنما توجد في قعر البحار الفصوص

فإن العقل لا يصدق ان يأتي المنصور مثل هذا العمل وان كان ابن بسام ينتقده عليه ويصب جام غضبه على رأسه فيقول « ولم يكن عند ابن أبي عامر تحرير ولا بصر بالنقد مشهور ، والا فليس يخلو كتاب الفصوص المذكور من غريبة مسموعة ، ولا من فائدة رائعة بديعة » (٩٥) ثم يعلق بعد ذلك مبينا شكه في صحة الرواية اذ يقول : (ولكنه خبر وجدناه فنقلناه ، وابن بسام أديب أندلسي وليس بعينه عهد أو متأخر عن صاعد كثيرا فقد توفي سنة ٥٤٢ هـ أي بعده بنحو من قرن من السنين • ومما يضعف هذه الرواية أكثر انها رويت عنى وجوه مختلفة فقد روى ياقوت : « ان أبا العلاء لما أتته دفعه لغلام له يحمله بين يديه وعبر نهر قرطبة فزلت قدم الغلام فسقط في النهر هو والكتاب » (٩٦) ومهما تكن قوة الرواية وصحتها ، ومهما يكن قول القائلين ونقد الناقلين : فان الكتاب قد ظل معروفا ، منسوبا لصاعد يدرسه عليه من يرغب فيه ، من طلابه ومحبيه • فقد روى ابن حيان قائلا : « وقرأته عليه منفردا في داره سنة تسع وتسعين وثلاث مائة » (٩٧) وبالإضافة الى هذا ، فهناك عدة مخطوطات معروفة اليوم ما تزال تنتظر النشر والتحقيق لترى النور • ففي معهد الدراسات الاسلامية في مدريد نسختان منه تحت رقم ١٦٦٨ ك (٩٨) وفي مكتبة جامعة القرويين في فاس نسختان أيضا تحت رقم ٥٨٧/٤٠ (٩٩) •

كتاب الجواس

ألفه المنصور محمد بن أبي عامر ، واسمه الكامل : (كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه غفراء) وقد وصفه ياقوت قائلا : « وهو كتاب لطيف ممتع جدا » (١٠٠) وبين أنه مخرم بسقوط أوراق منه لم يعثر عليها فظل ناقصا • وهو مفقود اليوم ولا وجود له بين المخطوطات المعروفة في المكتبات الشهيرة ، وعسى أن يعثر عليه في المستقبل • وهو على ما يظهر قصة غرامية خيالية ، تضم كل غريب من الاسماء والاحداث وتصف كل عجيب ، وقد اعجب به المنصور اعجابا شديدا ، ولذلك « رتب له من يقرأه بحضرته كل ليلة » (١٠١) •

كتاب الهججف

وهو كسابقة قصة غرام بين شاب وشابة اذ ان اسمه الكامل هو :
(كتاب الهججف بن غيدقان بن يثرب مع الخنوت بنت مخربة بن
أنيف) وذكر ياقوت انه « على طراز كتاب أبي السرى سهل بن ابي
غالب الخزرجي » (١٠٢) •

ان ما وصلنا من شعر صاعد على قلته يدل على شاعرية عظيمة
وفطرة سليمة وموهبة مواتية وطبيعة سمحة وقد ساعدته على ذلك عدة
عوامل وتضافرت لتكوينه عدة عناصر ، فهو عربي أصيل ، وهو أعرق
عروبه من ربيعة وشب في أرض عربية خالصة ، وهي الجزيرة القراتية ،
وبينتها عربية صافية وأهلها عرب أقحاح ، ورزقه الله ذكاء حادا ،
ومنحه الموهبة اللازمة • وثقافته اللغوية الواسعة واطلاعه على الأدب
العربي وكنوزه العظيمة وحفظه الكثير منه والتزود بخير زاد من الغذاء
الروحي الضروري مما يحتاج اليه الشعر من مفردات وصور وأخيلة
ومعان وقد ظهرت مخايل ذكائه ومواهبه منذ الصغر ، منذ أن كان يتلقى
عنوم العربية في الموصل على مشايخها (١٠٣) وقد كان فيها كثير من
الادباء والنحاة واللغويين فأحس ان علمهم لا يكفي طموحه فهاجر الى
بغداد بحثا عن علم أغزر وافق أوسع يتناسب مع طموحه ويتسع لما
يريد • وخير دليل على سرعة بديته وسلامة قريحته ما كان يرتجله
من الشعر في مختلف الموضوعات على اختلاف المناسبات • ومن ذلك
سبقه سواه من الشعراء مرتحلا الشعر في الموضوعات التي يقترحها
المنصور في مجلسه : كالبيتين اللذين وصف بهما وردة لم يتم تفتحها
مما أثار عليه حسد الحاسدين وهما :

أتتك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها (١٠٤)

ويخيل إلي « أنهما من أجمل الوصف وأبدعه • اذ لم ينظر الى
الوردة على انها نبات أقرب الى الجمود أو شيء يمتاز بالجمال الظاهري

وانما سكب فيها ما في روحه من حيوية وأعطائها شيئا من الحركة
وشبهها بالعدراء التي دفعها الخضر والحياء الى أن تغطي رأسها بأكمامها
ثلاثا تتعرض الى عيون الناس النهمة التي تريد أن تنظر اليها • ولا عجب
اذا ما دفع هذان البيتان عدوه ابن العريف الى تجشم الصعاب كي
يثبت أنهما ليسا لصاعد وانما لغيره من شعراء العراق زاعما ان صاعدا
سرقهما وادعاهما لنفسه •

وكان المنصور يتنزه في رياض الزاهرة يوما ومعه صاعد وغيره من
حاشيته فمد يده الى ترنجان فقطفه وطلب ممن معه أن يصفه ، فارتجل
صاعد هذه الايات الثلاثة قبل سواه :

لم آدر قبل ترنجان عبث به أن الزمرد أغصان وأوراق
من طيبه سرق الاترج نكهته ياقوم حتى من الاشجار سراق
لأنما الحاجب المنصور علمه فعل الجميل فطابت منه أخلاق

فهذه الايات تشهد ببراعته في الوصف أيضا وتبين حرصه على
اسباغ الحيوية على ما يصف واكسابه الحركة ليقربه الى الكائنات
الحية • بل انه يجعل الاشجار كالشجر ، تسرق وتتعلم حسن الجميل
وغير ذلك من الاخلاق وهل هناك دليل على سرعة بديته وحسن
ارتجاله من نجاحه في الامتحان العجيب الذي اجراه له المنصور حين
أحضر له الطبق الغريب لوصفه ؟ فوصفه في الحال بفأئته الجميلة :

أبا عامر هل غير جدواك واكف

• • • • •

وهل غير من عاداك في الارض خائف (١٠٥)

• • • • •

هذه النماذج الشعرية وغيرها مما وصلنا تمثل قريحة صاعد حين
ترتجل الشعر وقد تكون هناك نماذج أخرى لم تصل الينا ضاعت مع
شعره الكثير الذي ضاع ، لكننا لا ندعي أنه يرتجل الشعر في كل حين
ولم يصر بلحظات يرتج فيها عليه فلا يجد بدأ من الاعتذار أو إشار

انسكوت كعجزه عن وصف النرجسه التي ركبت في وردة ، وقد استعصى عليه القول بها يوم كان معه ابن شهيد ، ولم ينقذه مما هو فبه من حرج الا تلميذه الزهيري ، ومثل هذا ما وقع له حين طلب منه المنصور أن يصف خرشفا في زنبيل ، فحاول صاعد ولكنه لم يفلح فأنقذه ابن شهيد مما هو فيه اذ قال :

هل أبصرت عيناك يا خليلي
قنا فذا تباع في زنبيل

• • • • •

كأنها أياب بنت الغول
ذي ابر تنفذ جلد الفيصل (١٠٦)

• • • • •

وهذا طبيعي جدا عند الشعراء ، فليس الشعر كالينبوع المتدفق لا يفتأ يرسل ماءه لا يفتقر ولا يغيض وانما قد تدرك الشاعر ظروفه وأوقات لا يستطيع قول الشعر فيها روية بله ارتجالا ... وقد قال ابن رشيق في هذا « لا بد للشاعر وان كان فحلا ، حاذقا ، ميرزا ، مقدا - من فترة تعرض له في بعض الاوقات : أما الشغل يسير أو موت قريحة أو نبو طبع في تلك الساعة أو ذلك الحين ، وقد كان الفرزدق - وهو فحل مضر في زمانه - يقول تمر عليّ الساعة وقلع ضرس من اضراسي أهون عليّ من عمل بيت من الشعر (٦٥٧) .

وهكذا كان صاعد تارة يمكنه ان يرتجل ، وتارة لا يمكنه ذلك ، فلا يجد غضاضة في مثل هذه الحالات ، ويعترف بانه عاجز وقتذاك ، لانه واثق من قدرته وموهبته وشاعريته وأصالته . اذ كان يتمتع بمنزلة عظيمة بين شعراء عصره الذين عاشوا أحواله في الاندلس اوقبله بقليل خاصة شعراء المنصور .. والحق انهم كانوا كثيرين منهم الوزير المصحفي ، والامير الطليق ، وعبدالمملك بن ادريس الجزيري وعبد الرحمن بن أبي العهد ، وابن دراج الفسطلي وابن حزم ، وابن ماء السماء ، وابن الحناط ، وابن شهيد ، ومحمد بن سعود الغساني ،

والشيباني ، وابن شخيص وغيرهم ، وبالرغم من هذه الكثرة الكثيرة من الشعراء يومذاك اللهم إلا ما يبرز من ثقافته اللغوية ، أو دراسته شأن كبير ومنزلة مرموقة ، واحتل مركز الصدارة بين هذا الحشد من الشعراء وقد يكون لتقديم المنصور وجه أياه أثر في ذلك ، وقد يكون سبب هذا هو انه جاء من الشرق وأكثر أهل الاندلس ما يزال يحب كل ما جاء من الشرق ، ولكن هذا وحده لا يكفي ولو لم تكن لدى صاعد القدرة على ان يتبوأ ما تبوأ من مركز سام بينهم لما توصل الى ذلك أبدا . . . لاسيما وصاعد علم أن قرطبة ميدان جواد وبلد جدال وجلاد (١٠٨) ، وعلى اية حال فقد كان صاعد يتمتع بهذه المنزلة الرفيعة بين متقدمي شعراء عصره ، خاصة بعد أن الحق بشعراء الديوان حين نجح في الامتحان ، وحصل على مبلغ ألف دينار وما معه من ثمين المباس (١٠٩) ، ولو لم يتبوأ صاعد هذه المنزلة لما حسده الحاسدون ، ومن بينهم العالم الفاضل والاديب الكامل ولشاعر المبارع والمؤرخ الاجليل « وكل ذي نعمة محسود » ولأشك أن هذه المنزلة الرفيعة من نعم الله . . . ولو لم يتبوأ مثل هذه المنزلة لما طلب اليه أولاد المنصور أن يستمر في حضور مجالسهم الادبية كما كان يصنع مع أبيهم فأبى لانه عاهد نفسه ألا يحضر مجلسا عاما بعد وفاة المنصور . فألحوا عليه وزادوا في الالاح حتى اضطر ان يدعي انه اصيب بمرض في ساقه يمنعه من الخروج من داره وقبع في داره بعيدا عن المجالس والاضواء . ولو لم يكن كذلك لما كان المنصور يطلب منه بين الحين والحين أن يقول قصيدة يعارض بها قصائد كبار شعراء المشرق المتقدمين ، ومن ذلك أنه طلب منه أن يعارض قصيدة أبي نواس التي يمدح فيها الاخصيب ومطلعها :

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسورما يرجي نديك عسير (١١٥)

فأبى صاعد اجلالا لابي نواس . . . وأنشده قائلا :

إني لمستحي علاك من ارتجال القول فيه
من ليس يدرك بالروية ، كيف يدرك بالبديه (١١١)

ولم يجده ذلك الاعتذار نفعا ، وظل المنصور يلح عليه في معارضة
قصيدة أبي نواس فلم يجد بدا من ذلك وقال في المساء قصيدته التي
أنشدها في صباح اليوم التالي ، ومطلعها :
ومنها :

جدال الشرى انى يكن بصير طوتكن غني خلة وقتير
وباتت كما باتت مهاة جميلة لها جؤذر عند الصراة عقير
وقد أكلت أشلاؤه فكأنها مقسمة عند القداح جزور
كما بغمت من شجوها أم واحد اتيح لها مثل الزجاج طير
لذغذوة حتى صفت شمس يومها وفي أبهرها رنة وزفير
تسوف تراه عن مشق أهابه كأن أسا بي الدماء عتير

فهذا الشعر جزل قوي متين يدل على شاعرية اصيلة .. وان كان
ابن بسام يتحامل عليه ، ويرى ان اعتذاره كان تهييا من شعر أبي نواس ،
وخوفا من عدم بلوغ طبقة شعره اذ يقول : « ألا تراه كيف صرح
باليأس عن شق غبار أبي نواس ؟ ولكن ابن أبي عامر حمله على الضرر ،
وعرضه لسوء الخبر » (١١٢) غير ان الباحث المنصف لا يقبل برأي ابن
بسام هذا ولا يرضى بتحامله على صاعد ، وهو تحامل واضح قد
يكون من بين أسبابه ما حمل الزبيدي وابن العريف على كرهه وحده .

ولعل الحكم الفصل في هذا مقالته الذين ترجموا له من أعلام
الادباء والكتاب والنقاد ومدوقي الشعر ، كابن خلكان وياقوت
والقفطي والمقري وابن بشكوال وغيره .. فقد أجمعوا على أنه « حسن
الشعر » ولعل ابن بسام نفسه يناقض نفسه بنفسه اذ يقول في موضع
آخر من الكتاب : « وتخللت أثناء ذلك جملة من نظمه ونثره ، مما
يشهد على ثبوت قدمه وشهرة تقدمه » (١١٣) ولعل خير شاهد له على
تقدمه وبروزه بين معاصريه من الشعراء والادباء ما حصل عليه من مال
وفير من المنصور وحده حتى انه استطاع أن يعمل من أكياس تلك
الاعطيات قميصا كاملا لغلامه كافور وهو طويل القامة . فقد روى
« ان صاعدا قال (جمعت خرق الاكياس والصور التي قبضت فيها

صلوات المنصور محمد بن أبي عامر فقطعت لكافور الاسود غلامى فيها
قميصا كالمرقعة وبكرت به معي الى قصر المنصور فاحتلت في تشييطه
حتى طابت نفسه فقلت : يامولانا لعبدك حاجة فقال : اذكرها فلب .
وصول غلامى كافور الى هنا فقال : وعلى هذه الحال فقلت : لا اقنع
بسواه الا بحضوره بين يدك فقال : ادخلوه فمثل قائما بين يديه في
مرقعة وهو كالنخلة اشرقا فقال : قد حضر وانه يبادل الهيئة فمالك
أضعته ؟ قلت : يامولانا هنالك الفائدة اعلم يامولاي انك وهبت لى
اليوم ملء حلد كافور مالا فتهمل فقال : لله درك من شاكر مستتبظ
لغوامض معاني الشكر وأمر لى بمال واسع وكسا كافورا أحسن
كسوة (١١٤) . ولعل من أبرز مظاهر تعصب شعراء الاندلس ضد
صاعد وتحاملهم عليه انهم كانوا يهاجمونه دائما مدعين انه ينتحل شعر
غيره لنفسه - كما فعل ابن العريف اكثر من مرة ليزهدوا الناس به
وليبعدوهم عن حفظه حتى استطاعوا ان يقضوا على أكثر شعره
بالضياع . . . فان ما وصل الينا من شعر صاعد نزر يسير بل نادر
جدا لا يقاس بما وصل الينا من شعر غيره وقد قال الشعر فى الاندلس
منذ ان وصلها حتى غادرها وقد عاش فيها ما يقرب من ربع قرن فى
مختلف الموضوعات وعديد المناسبات ، ولم يصل الينا من شعره أكثر
من مائة بيت فأين ذهب قصائده ومطولاته ، وأين اختفت أشعاره
ومقطوعاته ؟ الهذا ليحز فى نفس الباحث اذا ما درس شعر صاعد
وأراد أن يعطيه حقه من الدرس وان يزنه غير ان النقد الصحيح ليقون
فيه قولاً علمياً صحيحاً سليماً مبنياً على أساس وطييد ودليل أكيد .

أما نماذج الشعر الذى بين أيدينا فانها تتميز بالجزالة والقوة حين
يحتاج الموضوع الى الجزالة والقوة والرقة والسهولة حيث يتطلب هذا
فهو شعر أصيل اذ ينبع من قلب صافي واحساس صادق فى أغلب
الاحيان وهو لا يتكلف فيه ولا يتصنع ولا يجشم نفسه أى عناء وقد
لا نجد فيه من الزخرفة اللفظية والصناعة البديعية ما كان يميل اليه كثير
من الشعراء يومذاك اللهم الا ما يبرز من ثقافته اللغوية ، أو دراسته
العلوم الدينية كقوله فى الغزل :

مهفهف أنهم من القمم أولاك محمدة من بعد تجربة
خالسته تفاح وجنته قمه الفؤاد نفاتر النظر
فأخافني قوم فقلت لهم لاقطع في تمر ولاكثر (١١٥)

ذالسطر الثاني من البيت الاخير اقتباس من الحديث الشريف .
وكما اتهموه بانتحال شعر غيره اتهموه بالسرقة من أشعار غيره ، بل
تحملوا في ذلك وتكلفوا أي تكلف لايجاد التشابه بين بعض أبياته
وبعض أبيات الشعراء السابقين ولعل مرد ذلك الى جانب كره صاعد -
كثرة تدارسهم دواوين المشاركة والتأمل فيها والتعميق في معانيها
والتحليق في أخيلتها وحفظ أكثرها مما جعلهم يتصورون أكثر المعاني
أو الصور مأخوذ منها فقد أوضح بعض الدارسين المحدثين آثار أكثر
دواوين شعراء المشرق في شعرهم في مختلف العصور (١١٦) فزعموا أن
قوله :

فأن شئت أن يركبوا يركبوا وان شئت أن يركبوا يركبوا

مأخوذ من أبي تمام ، اذ قال ابن بسام : « ينظر هذا بناظر مريب
الى قول حبيب » (١١٧) :

قد جاءت الرشا الذي أهديته خرقا ولو شئنا لقلنا : المركب
وبخيل إلي أن القاريء المحايد المنصف لا يجد أي تشابه بين
البيتين كما يرى ابن بسام ان قول صاعد :

يرق عليها السنان الحقود ويرحمها الصارم المغضب
مأخوذ من قول أحد المعاصرين له :

لعلك يوما ذاكري في ملة يلين بها قلب الاسير على القيد
ولا يقف عند هذا الحد بل يقول ان هذا البيت مأخوذ في الاصل
من قول أبي الطيب (١١٨) :

وغيظ على الأيام كالنار في الحشى ولكنه غيظ الأسير على القيد

وقال صاعد في المنصور :

لذغذوة حتى صفت شمس يومها وفي أبهر يها رنة وزفير
نسوف تراه عن مشق أهابه كأن أسا بي الدماء عثير

فقال ابن بسام : « لعله ذهب الى قول أبي الطيب » :

بلغت بسيف الدولة النور رتبة أنرت بها ما بين غرب ومشرق
إذا شاء أن يلهو بلحية أحرق أرامغبارى ثم قال له : الحق (١١٩)

الى غير هذا مما يتمحله الشائنون ، ناسين أو متناسين أن باب
الأخذ والتقليد في الادب العربي ، واسع متعدد الجوانب مختلف
المدخل ، متباين الوجوه ، وقد تناوله الأدباء والنقاد العرب بافاضة
وتفصيل منذ أقدم العصور ، وقد تناوله ابن رشيق بأسهاب ، وقدم له
بقوله : « وهذا باب متسع جدا لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعى
السلامة منه وفيه أشياء غامضة » (١٢٠) وقد ذكر الكثير من أنواع
الاخذ منها : الرق ، والنصب ، والإنارة ، والاختلاس ، والالماس ،
والملاحظة ، والاضطراب ، والمرافدة ، والاهتدام ، والنظر ، والمواردة ،
والالتقاط ، والتوليد ، والتوسيع ، والاضافة ، والتلفيق وغير ذلك (١٢١)
وعلى أية حال فقد قال صاعد شعرا كثيرا في مختلف الاغراض التي
عرفها الشعراء العرب في عصره . قال في المديح والوصف والغزل
والهجاء والأخوانيات وهذه أغراض شعره الذي بين أيدينا ، وقد
تكون هناك أغراض اخرى نضيفها الى هذه اذا ما عثرنا على شعره
الكثير المفقود . أما مديحه فكثير ، لكن لم يصل اليها منه الا القليل ،
فقد قال كثيرا منه في المنصور ، كما مدح قبله الوزير عبدالله بن مسلمة
والوزير أبا جعفر ابي الدب ، كما مدح بعد المنصور ولديه عبدالرحمن
وعبدالملك وآخر من مدح صاحب صقلية حينما هاجر اليها فأكرمه
وأحسن وفادته . ومن أجل ما وصل من شعر قصيدته في مدح المنصور
فيذكر غزوة سنة ٣٩٠ مهنئا اياه بالفتح العظيم ومنها :

حددت شكوي للهوى المتجدد وعهدت عندك منه ما لم يعهد (١٢٢)
اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى غضا وعاد الملك عذب المورد

ويصف، بطولة المنصور وأبنائه الصابرين الأبطال :

ما أستكين لروعة ومحمد
عهدي به والله ينظر صبره
غطى عليه المشركون فلم يكن
حتى تحصن بالملائكة التي
حملت ميامنهم عليك نسيجه
ورأوك فارتدوا على أعقابهم
وبنوه أنصار النبي محمد
والموت بين مصوب ومصعد
في القوم إلا صخرة في فدغد
حفته بين معضد ومردد
كالسبيل يحطم جامدا عن جلمد
مثل ارتداد تنفس المتهد

ويبين ما أصاب أعداءه من خوف وذل وشقاء وذعر :

وركبت فلهم بكل مهند
ما ناجزوك وفي الجوانح موضع
طال الشقاء عليهم وتبرموا
فتحالفوا لمحت وتجمعوا
يفضي به في الروع كل مهند
لتصبر ومكانة يتجدد
بالجيش في الذل المقيم المقيسد
لمفرق وتآلفوا لمبسد

وأكثر مديحه جزل قوي ، كقوله في مدح عبدالرحمن بن المنصور

مهنتا اياه بولاية العهد :

قرأت كتاب الجود وحدك أولا
فلما تجلى الحسن منه لبسته
أما والذي أعطى الخلافة ربها
لقد حازها مرخ عليها جناحه
وأوضحت منه كل ما كان مشكلا
فأحسنت في الاقوام أن تتفضلا
عقاب اذا ما أعلق الصيد جلجلا (١٣٣)
أغر معا في التبايع مخولا

وقد برع في الوصف كغيره من شعراء الاندلس فوصف كثيرا من
الاشياء التي تحيط به من المناظر والخضر والقواكه وغير ذلك • ومن
أجمل وصفه وأغربه وصف المنظر العجيب الذي امتحنه به المنصور فهو
يدل على براعته كما يدل على سرعة بديهته وهو لا يكتفي بالوصف
السطحي الذي يبدو الموصوف فيه جامدا بلا حراك به يكسب
موصوفه الحركة ويسكب فيه الحياة • وقد تبرز روح المناظرة في
وصف الأزهار كقوله :

جمل الفضيلة للبهار بسبقه ولظالما خلف البهار النرجس

أربى عليه طيبه ونسيمة لكنه عن نشره يتنفس
كالحاجب الميمون شبه في العلا بأبيه لكن فعل هذا أنفس (١٧٤)

وقد يعتمد في جمال الصورة التي يرسمها في الوصف على جمال التشبيه وغرابتها ، ومن ذلك قوله يصف ابريق خمرة ملئت منه كأس وبقيت في فمه نقطة لم تسقط :

وقهوة من فم الابريق صافية كدمع منجوعة بالالف مغبار
كأن ابريقنا والراح في فمه طير تناول ياقوتا بمنقار (١٧٥)
ومن أوصافه الجميلة البارعة قوله في الخيري وهو زهر الختمة :

بعثت اليك من خيري روض محزومة كأوراق العقيق
توكل بالغروب عن التصابي وتصطاد الخليع من الطريق (١٧٦)
وغزله رقيق سهل وصلتنا منه بعض المقطوعات منها :

قلت والرقيب بحمله مودعا للفراق : أين أنا ؟
فمد كفا الى ترائبه وقال : سر وادعا فأنت هنا (١٧٧)

وكان يطارح اخوانه بشعر الاخوانيات ومن ذلك ما كتبه الى الوزير الكاتب ابي حفص ابن برد حين ارسل اليه قصيدة منها :

أبه العلاء استمع تعريض ذي مقه أهدي لك اواد محضا غير مقطوب
ناء بغربتته والفهم نسبته وكم دني قصي في المناسيب
وصار في غربة الآداب مغربا أما كفى الدهر عض دون تغريب
أولائك محمدة من بعد تجربة لا يصلح الحمد الا بعد تجريب
أنت الذي لم يعاشر مثله رجلا في العالم والظرف والآداب والطيب
تحصيل فضلك للحساد معجزة وكنه علمك شيء غير محسوب
أما اللغات ، فلا يعقوب يبلغ ما وعيت منها ولا أشياخ يعقوب
وأنت رب القوافي الشاردات به تحدى وسبقتهما في كل اسلوب
انا ناديك للجلى وأنت لها طب تعالج فيها كل مطلب

الى آخر القصيدة وهي طويلة تمثل منزلة صاعد لدى ابن برد ،
فرد عليه صاعد (١٢٨) :

لييك ألفاً أبا حفص اجابة من
أبعد خمس وسبعين التحفت بها
رميتي بسهام غير طائشة
يا من يرفع بالآمال ما خرقت
ناديتي لخيال عز طائفه
حتى أقيك شدا الايام عن عضد
أيالك والموعد الخوان تقبله
يدلي اليك بود غير مأشوب
حتى قرعت لهذا الدهر ظنيوبي
حور زرين على صم الانايب
يدا الليالي ، قبيح صبوة الشيب
الا ليوم عصيب أو تنادي بي
ملدد وحسام غير مخشوب
فلا أمانة للعس المخاضيب

الى أن يقول :

شيخ الوزارة جنى الكتابة أن
فلا تسومن شيخا طار طائره
وأنت منفرد المضار منصله
ركبت منها طريقا غير مركوب
سوم الشيبية في لهو الخرايب
غير البديهة رواض المصاعيب

ولم يرو شيء من شعره في الهجاء ، ولكن روى الرواة أنه هجا
حاشدا البغدادي وهو أكبر منه سنا فرد عليه حاشد بهذين البيتين :

أقبل هديت أبا العلاء نصيحتي
لا تهجون أسن منك فربما
بقبولها وبواجب الشكر
تهجو أباك وأنت لا تدري

وقد قيل ان صاعدا بكى من هذا الهجاء وقال : ما هجيت بشيء
أشد علي منها (١٢٩) .

نشره :

ولصاعد نشر هو كثر معاصريه يمتاز بالتزام السجع والمحسنات
اللفظية والصناعة البديعية . وقد وصلتنا منه بعض الرسائل منها رسالة
كتبها الى مجاهد يصف ظهوره على خيران وأسره لجماعة من
الصقلب (١٣٠) :

« كتابي وأنا مستطار فرحا ، ومستوفر مرحا ، بالغادي والرائح

علي من البشائر التي تسمع الصم ، وتنطق البكم ، بعد ونجا بعد
ما ظن أن ليس ناجيا ، وخنزواني أقبل في صفاده عانيا ، صنع من الله
اسأله ضارعا أن يجعله عندك راسيا ، وعليك مخيما ، فان الذي آوى
اليه من نطورك ييدي ولوعا ويغري بالنزع النك والنزوع نحوك .
ومما أنشدنيه بهليمن ابو الغزور الاعرابي لنفسه وقد حج ابنه فقال
يذكر شوقه اليه :

ألا ليت لي عينين تطلعان على النأي أحيانا وتنصرفان
فأن كان خيرا سرنى وعرفته وان كان شرا ظلتا تكفان

ولما أتتني احدى خرائطك الجزيلة ، وتبادرت التباشير باحتلال
الركب ، كاد الفرع يقضي علي ، وينزع التماسك من يدي ، ولولا أني
تبت النخيرة ، ومحصد المريرة ، لكنت كأم أبي مزيد اذ بعث اليها
يحيى بن خلد غلاما ، فقال لها : يا أمة ، وهب لي يحيى (غ) . قالت :
وما «غ» ؟ قال : « لا » . قالت : وما «لا» ؟ قال : «م» وطبق
الميم على شفثيه فضرطت ، فقال : الحمد لله ، لولا تقطيع الحروف
لخرت . فحضرني اذا عند ورود المال ما كتبت به .

أتتك الخريطة والمركب كما اقترن السعد والكوكب
فقالوا : من الواهب المستقل عقائل يعيا بها الحسب ؟
فقلت فتى أصغرى النجار يروع به الشرق والمغرب
يحكك أسيافه بالردى كما حك بالهانيء الاجرب
فلولا شجاعته ما نجا ولكنه حول قلب
بصير بتوسيع سبل الفرار اذا ضاق بالمرهق المهرب

فهو يضمها الشعر بعضه من شعره وبعضه من شعر غيره من
الشعراء على عادة غيره من كتاب الاندلس .

الهوامش :

- (١) الانساب - للسمعاني ٢٤٨ .
- (٢) الجدوة - للحميدي ٢٢٣ .
- (٣) نفع الطيب للقمري ٨٦/٢ وانباه الرواة للقفطي ٨٩/٢ .
- (٤) وفيات الاعيان - لابن خلكان ٢٢٩/١ .
- (٥) انباه الرواة - للقفطي ٨٥/٢ .
- (٦) نفع الطيب ٨٥/٢ .
- (٧) وفيات الاعيان ٢٢٩/١ .
- (٨) الجدوة ١٥٦ ، الانباه ٨٥/٢ .
- (٩) انباه الرواة ٨٥/٢ .
- (١٠) الذخيرة - لابن بسام ق ع مج ١ ص ٣ .
- (١١) معجم البلدان - لياقوت ٢٨٣/١١ .
- (١٢) نفع الطيب - للمقري ٨٧/١ .
- (١٣) الجدوة ١٥٤ .
- (١٤) نفع الطيب للمقري ٨٧/٢ .
- (١٥) الذخيرة - لابن بسام ق ٤ مج ١ ص ١ .
- (١٦) نفع الطيب - للمقري ٨٧/٢ .
- (١٧) الذخيرة - لابن بسام ق ٤ مج ١ ص ٧ .
- (١٨) ممخرق : مموه ، مختلق ، كذاب .
- (١٩) نفع الطيب - للمقري ٨٦/٢ .
- (٢٠) المصدر السابق .
- (٢١) نفع الطيب - للمقري ٨٧/٢ .
- (٢٢) الصلة - لابن بشكوال ٢٣٣/١ .
- (٢٣) انباه الرواة - للقفطي ٨٩/٢ .
- (٢٤) الصلة ٢٣٣/١ .
- (٢٥) نفع الطيب ٨٧/٢ .
- (٢٦) الذخيرة ق ٤ مج ١ ص ٨ .
- (٢٧) المرجع نفسه .
- (٢٨) نفع الطيب ٨٨/٢ .
- (٢٩) هكذا في نفع الطيب وفي بعض المراجع الاخرى عاد الى عنصره .
- (٣٠) نفع الطيب ٨٨/٢ .
- (٣١) الذخيرة ٨ .
- (٣٢) نفع الطيب ٨٨/٢ .
- (٣٣) النفع ٨٨/٢ .

- (٣٤) النفح ٨٩/٢ .
- (٣٥) الذخيرة ١٠ .
- (٣٦) النفح ٨٩/٢ .
- (٣٧) نبرة : من أعمال مارده وهي كورة واسعة وبها مدينة كبيرة بينها وبين قرطبة ستة ايام (معجم البلدان) .
- (٣٨) نفح الطيب ٩٠/٢ .
- (٣٩) الذخيرة ٢٣ .
- (٤٠) نفح الطيب ٩٠/٢ .
- (٤١) شذرات الذهب ١٤٣/٣ .
- (٤٢) نفح الطيب ٤/١ .
- (٤٣) معجم البلدان لياقوت ٢٨٥/١١ .
- (٤٤) انباه الرواة ٨٥/٢ .
- (٤٥) معجم البلدان ٢٨٥/١١ .
- (٤٦) أرم : اصلح .
- (٤٧) النفح ٤٠٢/١ .
- (٤٨) نفح الطيب ٤٠٠/١ - ٤١٢ .
- (٤٩) الذخيرة ٣٧ .
- (٤٩) الذخيرة ٣٧ .
- (٥٠) الذخيره ٣٧ .
- (٥١) النفح ٤٠٤/١ .
- (٥٢) الذخيره ٣٨ .
- (٥٣) الذخيرة ٣٩ .
- (٥٤) الاعلام ٢٧١/٣ .
- (٥٥) تاريخ الفكر الاندلسي ٦٦ .
- (٥٦) الوفيات ٢٢٩/١ .
- (٥٧) الصلة ٢٣٢/١ .
- (٥٨) انباه الرواة ٨٥/٢ ، روضات الجنات ٣٣٣ .
- (٥٩) نفح الطيب ٨٧/٢ .
- (٦٠) الذخيرة ق ١ مج ٤ ص ٩ .
- (٦١) المرجع السابق ص ١١ .
- (٦٢) نفح الطيب ٨٨/٢ .
- (٦٣) الذخيرة ص ١٦ .
- (٦٤) انباه الرواة ٨٧/٢ معجم الادباء ٢٨٥/١١ .
- (٦٥) نفح الطيب ٩٠/٢ .
- (٦٦) الصلة ٢٣٢/١ .
- (٦٧) روضات الجنات ٣٣٣ .

- المصدر السابق (٦٨)
- معجم الادباء ١١/٢٨٣ (٦٩)
- النفح ٢/٨٧ (٧٠)
- الذخيرة ص ٢٢ (٧١)
- ديوان امرىء القيس ١٥٢ (٧٢)
- الذخيرة ص ٢٢ (٧٣)
- الذخيرة ص ٢٢ (٧٤)
- روضات الجنات ٣٣٣ (٧٥)
- الانباه ٢/٨٨ (٧٦)
- الذخيرة ص ٢١ (٧٧)
- النفح ٢/٨٦ (٧٨)
- النفح ٢/٨٩ (٧٩)
- الانباه ٢/٨٨ (٨٠)
- الانباه ٢/٨٨ (٨١)
- لسان الميزان ٣/١٦١ (٨٢)
- الذخيرة ص ١٩ (٨٣)
- تاريخ الفكر الاندلسي لبالنتيا ترجمة حسين مؤنس ص ٢٦ (٨٤)
- الصلة ١/٢٣٢ (٨٥)
- نفح الطيب ٢/٨٧ (٨٦)
- المصدر السابق ٢/٨٧ (٨٧)
- شذرات الذهب ٣/٢٠٧ (٨٨)
- الانباه ٢/٨٩ (٨٩)
- الوفيات ١/٢٢٩ (٩٠)
- النفح ٢/٨٧ (٩١)
- الذخيرة ٤/١٠٨ (٩٢)
- الوفيات ٢/٢٢٩ (٩٣)
- الذخيرة ٤-١/٨٥ (٩٤)
- معجم الادباء ١١ (٩٥)
- الصلة ١/٢٣٢ (٩٦)
- صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد (٩٧)
- المرجع السابق ص ٤٥٨ (٩٨)
- معجم الادباء ١١/٢٨٥ (٩٩)
- المرجع نفسه ١١/٢٨٥ (١٠٠)
- الانباه ٢/٨٥ (١٠١)
- النفح ٢/٨٨ (١٠٢)
- الذخيرة ١٢ (١٠٣)

- النفح ٢/٨٩ (١٠٤)
- الذخيرة ٢٩ (١٠٥)
- العمدة ١/٢٠٤ (١٠٦)
- الذخيرة ٨ (١٠٧)
- الذخيرة ١١ (١٠٨)
- ديوان ابي نواس ٢٦٨ (١٠٩)
- الذخيرة ص ١٣ (١١٠)
- الذخيرة ١٤ (١١١)
- الذخيرة ٣ (١١٢)
- النفح ٢/٩٤ (١١٣)
- النفح ٢/٨٧ (١١٤)
- تاريخ الاندلس (عصر سيادة قرطبة) ٩٣-١٠٨ (١١٥)
- الذخيرة ص ٦ (١١٦)
- الذخيرة ٦ (١١٧)
- الذخيرة ١٤ (١١٨)
- العمدة ٢/٢٨٠ (١١٩)
- العمدة ٢/٢٨٠-٢٩٢ (١٢٠)
- اعمال الاعلام ٧٢ (١٢١)
- اعمال الاعلام ٩٤ (١٢٢)
- تاريخ الادب الاندلسي عصر سيادة قرطبة ص ١٠٠ (١٢٣)
- الذخيرة ١٥ (١٢٤)
- النفح ٢/٩٧ (١٢٥)
- الذخيرة ق ٤ مجلد ١ ص ١٣ (١٢٦)
- الذخيرة ق ١ مجلد ١ ص ٨٤ (١٢٧)
- النفح الذخيرة ق/١ مجلد ١/ص ١٠٨ ، ١٠٩ (١٢٨)
- نفح الطيب ج/٤ ص ٩٥/ط ١٩٤٩ القاهرة (١٢٩)
- الذخيرة ق ٤ مجلد ١ ص ٦٢٥ (١٣٠)

المصادر والمراجع :

- ١ - اعمال الاعلام - للسان الدين ابن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال
- ٢ - انباه الرواة على النحاة - لجمال الدين القفطي ، القاهرة ، دار الكتب المصرية .
- ٣ - الانساب - لابي بكر السمعاني - القاهرة .
- ٤ - بفية الوعاة في صفات اللغويين والنحاة - للسيوفي ، القاهرة ١٩٦٤
- ٥ - البيان المغرب في اخبار المغرب - لابن عذارى المراكشي ، بيروت ، صادر .
- ٦ - تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة) - لاحسان عباس ، بيروت ١٩٧٢ .
- ٧ - تاريخ الفكر الاندلسي - لآنخل جنثالث بالنتيا (ترجمة حسين مؤنس) ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ٨ - جذوة المقتبس - للحميدي ، القاهرة ١٩٥٢ .
- ٩ - ديوان امرىء القيس - القاهرة ١٩٥٩ .
- ١٠ - ديوان ابي نواس - القاهرة ١٩٤١ .
- ١١ - الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة - لابن بسام الشنبريني ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ١٢ - روضات الجنات - للخوانساري ، القاهرة .
- ١٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - لابن العماد الحنبلي ، بيروت - المكتب التجاري .
- ١٤ - الصلة - لابي القاسم خلف بن بشكوال ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ١٥ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه وتقده - لابن رشيق القيرواني ، القاهرة ١٩٧٢ .
- ١٦ - معجم الادباء - لياقوت الحموي ، القاهرة ١٩٢٧ .
- ١٧ - نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب - لاحمد المقرئ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .
- ١٨ - وفيات الاعيان - لابن خلكان ، القاهرة .